أنا حرة

بقلم: برسي إدواردز

«يا للسخرية!»

«إلى متى يتسلط علينا الرجال، ويحتكرون لأنفسهم جميع الحقوق، وينكرون على المرأة أي حق وأية مزية؟!

«للرجل أن يختار الفتاة التي تروق في عينيه، لكي يبني بها، ولو كان دميماً أو هرماً أو ذا عاهة.. والمرأة صامتة تساق إلى جلادها كشاة تساق للذبح!

«للرجل أن يخرج من البيت ويدخل كما يشاء، وأن يحب ويكره ويأمر وينهي، وأن يطعم وينام حيث يشتهي... والمرأة تصدع بالأمر أو تقبع في البيت أو تنهض للخدمة من غير توقف أو شكوى أو اعتراض.. كحيوان أخرس!

«للرجل أن يرتب مقابلاته وزياراته الخاصة على الوجه الذي يحلو له، بلا حسيب ولا رقيب.. والمرأة لا تلتفت إلا بإذن ولا تتحرك إلا بمقدار، ولا تنقل قدميها إلا معززة برقابة تكتم الأنفاس!

«للرجل الحرية والتسلط والامتياز والتوقير.. والمرأة مسلوبة الحرية والإرادة والاختيار والكرامة!

«وأخيراً أعطى الرجال لأنفسهم – هكذا بكل غطرسة وأثرة – حق العقاب والطلاق والفراق.. أي حق تشريد المرأة والقضاء على مستقبلها، كإنسانة كان ينبغي أن تعيش مطمئنة عزيزة، ناعمة البال.

«وتسألهم في ذلك مراجعاً، فيتشدقون بألفاظ التقاليد.. العرف.. العادات!!

«أية عادات وأية تقاليد؟

«ألم تضعوها أنتم أيها الرجال مراعين وقد انفردتم بالحكم أن تحابوا أنفسكم.. أليست هذه شريعة الغاب حيث الغلبة للوحش المفترس، وحيث الغدر والمفاجأة والافتراس هي العرف السائد الذي لا أعترض عليه؟!

«لماذا لا تنعكس الآية وتصبح الحقوق التي استأثر بها الرجل لنفسه هي حقوق المرأة وحدها؟

«أو لماذا – على الأقل – لا يكون من حق المرأة أن تفعل مثلما يفعل الرجل، فتتمتع بالحرية، والمساواة، وإبداء الرأي؟

«لماذا لا يكون لها – هي أيضاً– حق الاعتراض.. حق الفيتو تلوح به في وجه الرجل إذا اكتشفت أنه لا يناسبها كزوج، أو عمد إلى تهديد أمنها أو مستقبلها؟

«إذا كنت بنات جنسي لم يستطعن إلى الآن أن يكتسبن هذه الحقوق، فأنا لها!

«إن هذه الخطوة الجريئة التي تجفل منها سائر الفتيات وسائر الزوجات لن تخطوها إلا إنسانة فدائية مضحية، تتقدم الصفوف وتهب نفسها لشتى الاحتمالات والأخطار..

«وأنا هي تلك الإنسانة!

«سأنطلق كالشعلة اللاهبة، والصيحة المدوية، وأنتزع حق بنات جنسي انتزاعاً ولو فقدت هناءتي وحطمت قلبي وقدمت نفسي قرباناً على مذبح المباديء التي أرتضيها لهن.

«سأثور منذ اليوم.. أنا الفتاة المشرفة على سن الثلاثين، إنني أخب في ثياب العرس، وأفتح عيني لأول مرة على بيت الزوجية!

«أجل سأثور.. سأجعل العصمة بيدي أنا الزوجة، دون الزوج.. ولنر أهي ثورة شباب، أم هي ثورة حساب وعقاب..

«أجل.. سأثور!..»

***

كانا جالسين في جانب من الشرفة يتحادثان، تظللهما زروع الحديثة الكبيرة بأفنانها وثمارها.. واستندت «شيلا» إلى مقدها المستطيل ترقب «روبين» وهو يطلع على قائمة المدعوين الذين سيحضرون إلى حفل زفافهما القريب.. كانت قائمة طويلة حاشدة بالأسماء والصفات، من بينها عدد من زملائها وزميلاتها في وقت

الدراسة الجامعية. ورأته يمر بعينه مسرعاً إلى نهاية القائمة.. كانت واثقة من أنه لا يعرف إلا أسماء قليلة منها.

وفجأة سألها روبين «من هذا؟»

وقرب إليها القائمة، مشيراً إلى أحد الأسماء.. كان مكتوباً لم كشط ووضعت مكانه علامة استفهام.

وقربت «شيلا» وجهها من القائمة، وقالت:

– هذا اسم عمتي «مونيشا»..

– ولماذا علامة الاستفهام، ولماذا كشط الإسم؟

– ماما هي التي وضعت علامة الاستفهام، وبابا محا الإسم كله.. لقد كنت أود أن تحضر حفل الزفاف، ولكن..

– ما خطب العمة مونيشا هذه؟ مرض معد.. أم شيء آخر؟

– لا شيء من هذا ولكن.. لقد سلكت سلوكاً معيباً..

فالتفت روبين باهتمام إلى خطيبته، وقال:

– إذن هي الشاة الضالة.. «الشاة السوداء» في الأسرة.. أليس كذلك؟... ماذا اقترفت من خطيئة لم تغتفر لها حتى الآن؟

– لا أعرف تماماً تفصيل ما حدث، فقد كنت حينئذ في سن التاسعة، وانقضت الآن إحدى عشرة سنة.. لقد هربت!

– هربت؟!!

– أجل تركت زوجها وذهبت بعيداً.. قيل لي أنها ثارت على الوضع الذي أرادوه لها، فقد اكتشفت بعد الزواج أن الزوج لا يناسبها وأنها لا تحبه.. كان زوجها رجلاً غنياً له في البلدة جاه ومركز مرموق، وكان صديقً حميماً لأبي، ومن هنا اشتد سخط أخيها عليها، وأنكر فعلتها، وتنكر لها منذ ذلك الحين.. أما هي فمضت في خطتها إلى النهاية، وتناقلت النساء أنباء ثورتها وخطتها وهن متحفظات، وقلن إن هي إلا ثورة شباب.

وشرحت له فلسفة هذه الثورة، وكيف أن النساء مظلومات هذا العالم وأن ليس لهن حقوق، حتى حق اختيار الحياة التي هي من شأنهن وحدهن..

وختمت كلامها قائلة:

– ولعلك تدرك الآن السر في كشط اسمها من القائمة!

فسألها روبين:

– وأين هي الآن؟

- لم يكن من حقي أن أعرف مكانها، ولكنني عرفته.. إنها تعيش هنا، في كلكتا..

وذكرت اسم شارع تبينت أن روبين لا يعرفه

- وهل يعلم والدك أين تقيم في كلكتا؟

- لا أدري، وإن كنت أرجح أنه لا يعلم..

والتفت إليها الشاب، ونظر إلى عينيها، وقال بلهجة جادة:

- إن هذا هو حفل زواجك. أليس كذلك؟... من حقك «أنت» أن تدعي إليه من تشائين.

- ولكنه متكفل بالأمر على كل حال.. وتخيل أنت كيف يكون موقفه مني لو خالفته.. إنني لم أسمعه يذكر اسمها منذ ذلك الحين، ويبدو أنه تشاجر معها وخاصمها ألد الخصام.. لقد رفضت بإصرار أن تعود إلى زوجها، وكانت تريد الطلاق، ولكن الزوج رفض أن يطلقها..

- إني أرى أن هذه هي الفرصة المناسبة للتحدث إلى والدك في هذا الموضوع.

واتعرضت شيلا قائلة:

- إنك إذن لا تعرف بابا كما أعرفه.. لا تنس أن هذا الوقت غير مناسب لأن نثير فيه نزاعاً عائلياً من جديد.

ثم وثبت من مقعدها على قدميها، وشدته من يده وهي تقول:

– هيا بنا، الشمس تسرع إلى المغيب، فلنتمش قليلاً في الحديقة.

***

وبينما هما يتهاديان جيئة وذهاباً، ابتدر الشاب خطيبته قائلاً:

– ترى...

– ترى ماذا؟

واستدرك من هذا الخاطر، فقال على الفور:

– لا شيء.. لا شيء

قالت:

– بل قل كل شيء، فلا حجب ولا أسرار بيننا..

– أريد أن أقول أن هذا النعيم الذي أنت فيه بين والديك، وهذه المجالي والمفاتن التي قد لا تتوافر في بيت شاب ناشيء غير ميسور الغنى مثلي، قد تحول بينك وبين الحياة التي ستقبلين عليها.. أنا نفسي أحب لك أن تكوني ذات شخصية ورأي مستقل، بل أفضل أن تكوني الشاة السوداء – إذا احتاج الأمر – على أن تظلي شاة بيضاء عزيزة الصوف مسمنة بلا غاية!

وتحيرت الفتاة وهي تفكر فيما قاله لها فتاها.. هل تكون الفوارق المادية بين الأسرتين سبباً في القطيعة أو الجفوة؟ حقاً إن الأسرتين مختلفتان جد الاختلاف!.. إن أباه ليس إلا موظفاً عادياً في إحدى الشركات، أما والدها فهو يشغل منصب المدير العام لشركة التصدير البنغالية، وهو يدير أيضاً نصف دستة من الشركات التجارية الأخرى.. المال، المركز الاجتماعي، التأمين، كل هذه أشياء كانت في متناول يدها دائماً، ولم تفتقد شيئاً منها قط. أيكون هذا هو ما يعنيه الشاب بكلامه، وهو يتصور أنه لن يستطيع أن يهييء لها مثل هذا الجو ومثل هذا القدر الذي اعتادته؟.. إن الشيء الوحيد الذي تتشابه فيه الأسرتان هو أنهما تدينان بالدين المسيحي، وكان هذا هو الذي دفع بهما إلى اللقاء الأول.. فلم يكن لقاء «روبين» و«شيلا» وتعارفهما إلا في الكنيسة!

والتفت الشاب إلى خطيبته وقال:

– حدثيني أكثر عن عمتك مونيشا.. أن أمر النساء الغريبات الأطوار يستهويني دائماً..

– لقد تزوجت وهي صغيرة السن، وكان زوجها واسع الغنى والثراء.. ولكن الغنى لاًيكن هو بغيتها.. وكان زوجها أيضًا شخصية مرموقة في البلدة.. ومن أجل هذا استطاع أن يكون صديقاً لأبي.. لم يكن هذا الزواج من النوع الذي تطمح إليه، فما كادت تعاشره حتى نفرت منه واختفت عن الأنظار.. أما لماذا تركته وكيف تركته فهذه تفاصيل لم يخبرني أحد بشيء منها غير ما رويته لك منذ قليل.

– وزوجها؟؟

– لقد مات بعد ذلك في حادث قطار

وصمت الشاب قليلاً ثم قال:

– إنني أظن أنه ينبغي أن تحضر عمتك حفل الزفاف في الأسبوع القادم يا شيلا.. لقد خرجت على التقاليد الموروثة.. أجل، ولكنها عوقبت بما فيه الكفاية!

وهزت شيلا كتفيها كمن لا يملك أن يصنع شيئاً وقالت:

– لقد وضعت اسمها في القائمة كما رأيت، ولكن...

– قولي لي الآن: هي تريدينها حقاً؟.. هل مازالت تحبينها؟

– أرجوك يا روبين، لا تثر هذا الموضوع الآن.. إن بابا لن يسمح بمجيئها، ولن ينفعنا التعرض لهذه الأمور.. بل قد يضر بنا!...

– لا داعي للتفكير في هذه الاحتمالات.. إن موضوعنا ينحصر في أنك تريدين أن تشهد عمتك حفل زواجنا.. فدعيني أذهب إلى والدك لأحادثه في هذا الشأن..

وأخذها من ذراعها، وعاد بها إلى المنزل، ودخلا إلى المكتبة حيث كان يجلس والدها مستر «بنرجي».

قالت شيلا:

– بابا، لقد كنا نتناقش في بعض الأمور. إن روبين يرى أن ندعو عمتي مونيشا لتحضر حفل التكليل.

ولم يتغير وجه الرجل، ولكن بعض الدم صعد إلى جذور شعره الذي وخطه الشيب، وقال:

– إنه رأي! مجرد رأي، أليس كذلك؟

ورمق ابنته بنظرته، ثم تحول إلى الشاب الذي كان يقف أمامه وقفة المعتد بنفسه، الضابط الصغير في القوات الجوية، روبين وبلل شفتيه ثم استأنف قائلاً:

– إنها مسألة عائلية أيها الشاب، ولا أظن أنها تخصك في شيء..

فقال روبين:

– ولكنه الحفل الذي يعقد فيه قران شيلا يا سيدي، وأنا أحسب أنه ينبغي أن يؤذن لها بدعوة الأشخاص الذين تحبهم هي!..

فرفع الرجل يده وقد تجهم وجهه، وقال محتداً:

– أنا لا أريد أن أناقش معك هذه المسألة

ولكنه ما لبث أن ضبط أعصابه وعاد يقول في هدوء:

– إنني لا أدري كيف نستطيع أن نتناقش فيها.. أنك لست في مركز يمكنك من معرفة التيارات العائلية ومشاكلها الدقيقة مثلما نعرفها.. وأنا موقن أنك ستدركها يوماً ما. أما الآن..

وفي هذه اللحظة دخلت الأم وهي تقول:

– ما الخبر يا شيلا

وقال الرجل الكبير:

– لا شيء يا نيلليما

ورددت الإبنة قوله:

– نعم يا مامي. لا شيء..

ولم يجرؤ أحد على استئناف هذا الحديث في ذاك اليوم.

***

لم يشر أحد إلى موضوع العمة طوال الأسبوع الذي سبق الزواج، ونسي الرجل كل شيء وعاد إلى طبعه السمح، وكان يتحدث إلى خطيب ابنته في أمر العلاوة التي سيضيفها إلى المصروف الذي يختصها به.

واعترض الشاب الشهم ورفض أن تقبل عروسه علاوة من أبيها أو مصروفاً.

وقال الرجل:

– في الوقت الحاضر لابد من أن يستمر مصروفها، ريثما تقفان على أقدامكما.. وتستطيع أنت أن تصعد السلم، فتصبح قائد جناح.. قائد سرب.. إنك لا تعرف الفتاة التي ستتزوجها. لقد اعتادت أن تحصل على أي شيء تريده!

وأمن الشاب على كلامه، وشكره.. وانصرف

وتواعد الشاب وخطيبته على أن يلتقيا في الليلة التي تسبق يوم الزفاف، ليخرجا للتنزه.

وفي الليلة الموعودة ارتدت شيلا ثياب الخروج، وكانت أمها في حجرتها، فسألتها شيلا:

– هل حضر روبين يا أماه؟

فقالت الأم:

– إنه هناك في المكتبة مع والدك

فعادت تقول:

لم هذا الكتمان؟ أهو سر من أسرار الرجال؟ أليسا هما يتنازعان بشأني مرة أخرى، كأنني فرس تعرض للبيع؟!

وأجابت الأم:

– لعلهما يتناقشان بشأن مصروفك الجديد..

– إذن هيا بنا إلى المكتبة، سأدفعهما إلى الخارج..

وهبطتا الدرج وهما تتضاحكان

وما أن رآها روبين حتى تهلل وجهه وقال:

– هاللو شيلا.. لقد جئت منذ قليل، وانتظرتك هنا مع «عمي»..

ونظرت إلى والدها، فإذا هو يقول:

– أجل، هو ذاك

وبعد خمس دقائق كان الطائران المرحان منطلقين في شوارع المدينة الواسعة في السيارة الفخمة التي أعارهما الوالد إياها

***

ومالت الحسناء برأسها على كتفه، وما لبث أن استسلمت لنسمات الأصيل المخدرة، فراحت في إغفاءة لذيذة، تتخللها الأحلام الجميلة.

وعندما وصل ربين في النهاية إلى منعطف عند طريق «جوبي موهان داتا»، كانت قد فتحت عينيها، وقال لها رفيقها على غير انتظار:

– ذلك الرجل الذي هو أبوك.. إنه لرجل!.. والعظيم فقط هو الذي يكتشف الخطأ ويعترف به!

وحسبت الفتاة أنه يتحدث عن العلاوة المالية التي ستظفر بها من أبيها فقالت له:

– إذن لقد كسبت. أليس كذلك؟

– لا، لم أكسب، طبيعته الخيرة هي التي كسبت!

وتنبهت شيلا إلى أنهما توغلا في طريق المدينة فقالت:

– أين نحن الآن؟ لقد كنت أظن أننا سنتناول عشاءنا في مطعم «فربوس»!

– سنذهب أولاً لزيارة صديق قديم لك.

– صديق؟!..

– شخص عزيز عليك..

وفجأة تذكرت شيئاً، فتعلقت برقبته وهي تقول:

– روبين!.. هل نحن في طريقنا إلى...

– نعم.. نعم..

– ولكن كيف عرفت؟!

– ليس الأمر عسيراً.. لقد ذكرت لي اسم زوجها، واسم الشارع الذي تقيم في أحد منازله.. وببعض التحريات عرفت الباقي..

وأمسكت شيلا بذراعه وسألته:

– هل هي بخير؟

– إنها تشكو من داء النقرس – التهاب المفاصل – وفيما عدا هذا هي بخير. إنها تنتظر قدومك..

ووقفت السيارة، وهبطا منها وصعدا درج المنزل ودقا الباب. وكان لقاء حاراً تجمعت فيه أشواق السنين عدداً، فيها البعد والفراق والحرمان والتجارب. وكان أول شيء اهتمت به شيلا أن تدعو عمتها لتشهد حفل الزفاف، وإن كانت مترددة وجلة لما تعلمه من مغبة استجابة عمتها للدعوة..

وقالت العمة مونيشا:

– كان بودي أن أحضر وأبارك زفافكما، ولكن أباك لم يوجه إلي الدعوة..

قالت شيلا:

– إنك لست في حاجة إلى مثل هذه الدعوة يا عمتي، فأنت ذاهبة إلى بيتك وإلى ابنتك..

– إنني لا أستطيع أن أتجاهل العرف والتقاليد.. اسمعي يا ابنتي نصيحة امرأة عانت من التجارب أحد عشر عاماً: لا تخالفي العرف، ولا تتخطي التقاليد.. إن التقاليد هي تراث الآباء والأجداد، وخلاصة الحكمة التي اكتسبوها على مر الأزمان، والخبرة التي تعلموها بالمران والمثابرة والدرس والبحث، وهي العمد التي يستند إليها نظم المجتمع كله، بها يقوى ويشتد، وينمو ويزدهر..

– ولكن يا عمتي.. لقد كنت أظن غير هذا.. لقد سمعت من قبل شيئاً آخر.. سمعت عن الثورة التي تزعمتها..

ومسحت العمة بكفها قرب عينيها وقالت:

– يا ابنتي، لقد كانت ثورة شباب.. ثورة طائشة، كنت أنا وقودها، وقربانها!!

وأخرج روبين من جيبه بطاقة مذهبة جميلة، تحمل اسم العروسين معنونة باسم «مونيشا».. وقدمها روبين وهو يقول: «هذا الرجل العظيم.. لقد انتصرت طبيعته الخيرة!»

وقرأت في ركنها عبارة بخط أخيها يقول فيها:

«عودي إلينا يا مونيشا، عودي الليلة إلى مكانك القديم وغرفة نومك الشرقية!!».

وهتفت العمة متهللة:

– إذن لقد عفا عني!!

لقد فكر في أن ينتقم.. فكر في أن يعاقبها عقاباً يضارع هول الحادث.. هل يقتلها إذن؟.. إن القتل لا يكفي!..